

المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية
الندوة رقم 163: واقع اللغة العربية في عدد من الدول
الفترة المسائية - 14:00 - 17:30: - 7 مايو 2016 الموافق

ليبيا

جامعة بنغازي (قاريونس)
كلية الآداب والعلوم/ سلوق
قسم التاريخ

بحث بعنوان

أثر الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية
(جامعة سالرنو أنموذجاً)

د. أمال سليمان عبد الحميد الزوي
أستاذة التاريخ الوسيط الأوربي

مقدمة

يعتبر التواصل والعطاء بين الحضارات قديماً، فما من حضارة قامت ثم ازدهرت إلا وأخذت ممن سبقها، ثم أضافت وأبدعت، فحركة الحضارة حركة تناوبية، تأخذ وتعطي، تتأثر وتؤثر، فالشرق أول من أعطى ثم أخذ، ثم أعطى. ولما جاء دور أمتنا في بناء الحضارة، قامت بالدور المطلوب منها بإتقان على خير وجه، لقد قامت بعمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ الإنسانية، فترجمت، واقتبست، ثم أضافت وأبدعت.

وفي القرون التي كانت حضارتنا في أوج ازدهارها، ومن ثم في قمة عطاءاتها، كانت هناك معابر وقنوات، انتقلت وتسربت عبرها اللغة العربية بكل ثقافتها وفنونها إلى الغرب الأوربي في العصور الوسطى، قبيل عصر النهضة، وتعتبر جامعة سالرنو من بين القنوات التي نشرت اللغة العربية؛ وذلك عن طريق الاستعانة بالطب العربي الإسلامي، فأصبحت منارة العلم للحضارة العربية الإسلامية في جنوبي إيطاليا ومنها إلى أوروبا، وبذلك فرضت الحضارة العربية الإسلامية نفسها على النورمانديين أولاً، وعلى أوروبا كلها ثانياً.

ومن هذا المنطلق سيتناول البحث أثر الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية، مع التركيز على دور جامعة سالرنو في المحافظة على التراث العربي ونشره إلى أوروبا، وذلك عن طريق الانتفاع بهذا التراث في وضع أساسات الجامعة، واستقطاب عدد كبير من العلماء المسلمين، الذين ترجموا عدة مؤلفات كانت مادتها نقطة الانطلاق لعدد من الجامعات في غرب أوروبا.

وفق ما تقدم، سيُطرح موضوع "أثر الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية (جامعة سالرنو أنموذجاً)" وهو يندرج تحت محور من محاور المؤتمر، وهو المحور المسمى "اللغة العربية والثقافة وحوار الحضارات"، وذلك على ضوء المباحث الآتية:

أولاً: الحضارة العربية الإسلامية وغرب أوروبا.

ثانياً: جامعة سالرنو والحضارة العربية الإسلامية (ودورها في التفاعل الحضاري).

أولاً: الحضارة العربية الإسلامية وغرب أوروبا

1- الحضارة العربية.

عرفت الحضارة العربية الإسلامية منذ العصر الوسيط ازدهاراً كبيراً في كافة الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية. وقد كان للدين الإسلامي دور كبير في هذه الوضعية، من خلال مبادئه التي

تحت على العمل وتحصيل المعرفة والتدبر في الكون والحياة، والبحث في القوانين الطبيعية، كما أن الإسلام جعل من العلم فريضة على المسلم ورفع قدر العلماء، وخاطب العقل ووجهه نحو التفكير والإبداع.

وعلى إثر الفتوح الإسلامية وتوسع المبادلات التجارية، اطلع المسلمون على ثقافات أخرى كالفارسية والإغريقية والهندية، فعززوا معارفهم وأغنوها ثم شرعوا في إقامة المكتبات ونشر المعرفة، حيث كان لهم السبق في مجال التعليم بإنشاء الجامعات في العواصم والمدن الكبرى كبغداد ودمشق وأهمها جامعة الأزهر بالقاهرة⁽¹⁾.

وقد حظيت اللغة العربية في البداية باهتمام كبير من طرف رواد العلوم اللغوية، فتم وضع المعاجم والقواعد قبل الانتقال إلى حركة الترجمة إلى اللغات الأخرى، من جهة أخرى خلف العلماء المسلمون تراثاً غنياً في مجال الآداب والعلوم، خاصة في الطب والرياضيات والفلك، حيث تم استغلالها في تدبير الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمسلمين.

أما في ما يخص فنون العمارة والزخرفة فقد اهتم المسلمون بتشييد المساجد والقصور وإقامة مدن جديدة بمختلف مرافقها، مستعملين في ذلك مختلف فنون الزخرفة والرسم والنقش. وفي الوقت الذي عرفت فيه الحضارة العربية الإسلامية ازدهاراً كبيراً، كانت أوربا تعيش في فترة العصور الوسطى، التي كانت مرتبطة بانعدام الأمن، خاصة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وتوغل القبائل الجرمانية وخضوع بعض المناطق للسيطرة العربية الإسلامية.

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في العالم الغربي، حيث استقى علماء أوربا من المصادر العربية الأصلية، ووجدوا أنها تراثٌ علميٌّ عظيمٌ، فاشتغلوا بدراسته وتحليله. ولقد كان العرب والمسلمون يمثلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة، كانوا رواداً في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المتقنون والعلماء في أوربا من الثقافة العربية الإسلامية أكثر من مجرد المعلومات، إنهم اكتسبوا العقلية العلمية⁽²⁾.

وقد أجمع الباحثون على أن الحضارة العربية الإسلامية كانت أعظم حضارة شهدتها العالم في العصور الوسطى، فكان العرب ما إن يستقروا أو يفتحون مدينة ماء حتى تتحول إلى مركز للحضارة يقصده طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم، للتزود والاستنارة. وحين نقارن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل سالرنو في صقلية قبل الفتح العربي لها، وأحوالها بعد استقرارهم بها، نجد كيف تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر إلى نشاط في مختلف مجالات الحياة.

2- معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا.

أ- الأندلس: كان ازدهار الحضارة في الأندلس يتمثل في مدينة قرطبة وغرناطة، وكان لقرطبة بالذات تأثير كبير وعميق في مسيرة الحضارة؛ لما احتوته خزانة الخليفة المنتصر في منتصف القرن العاشر الميلادي مما يزيد على أربعمئة ألف مخطوط ومجلد، فأصبحت الأندلس قبلة للأوروبيين، فأقبل الإسبان على اللغة العربية والترجمة منها إلى اللاتينية، وكانت الأندلس المركز الرئيسي لحركة الترجمة⁽³⁾.

ب- أما صقلية فقد حكمها المسلمون من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، فانتشرت فيها مظاهر الحضارة الإسلامية من مساجد وقصور وحمامات ومستشفيات وأسواق وقلاع، ودخلت فيها صناعات منها صناعة الورق والحريير والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون، إضافة إلى استخراج المعادن. واستمرت العلاقات الثقافية بين المسلمين وأهل صقلية بعد ذلك في عهد النورمان⁽⁴⁾.

ج- الحروب الصليبية: وعن طريق الحروب الصليبية التقى الغربيون بالمسلمين، فنقلوا عنهم نباتات عرفوها لأول مرة وسموها بأسمائها العربية، مثل السكر والأرز والقطن والسمسم، وتعلموا بعض الصناعات العربية مثل صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والأصباغ والحلي والعقاقير. وهكذا كانت الحروب الصليبية ميداناً للكسب الحضاري، ففيه بدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من حضارة العرب، وكانت كفة العرب في هذه العلاقات هي الراجحة، فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوربا، على حين لم تكن أوربا حتى القرن السادس عشر تملك المقومات التي يمكنها أن تضيفها لتراث العرب، لهذا أخذ الأوروبيون من العرب أكثر مما أعطوا، فاقتبسوا الكثير من علوم العرب وفلسفتهم وعمارتهن وفنونهم العسكرية، وصناعاتهم وتجارتهم، وحياتهم الاجتماعية⁽⁵⁾.

د- حركة الترجمة: تأثرت لغات أوروبا وآدابهم ومجتمعاتهم إلى حد كبير بحركة الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الأوربية، وقد كان العرب يملكون مفاتيح التجارة التي يحتاجها الأوربيون، مثل التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق المعروفة. وقد تأثرت أوروبا بالثقافة العربية في مجالات متعددة، ففي الأدب تأثرت أوروبا بالشعر العربي والحكم والأمثال والقصص، فقد ترجمت قصص (ألف ليلة وليلة) إلى لغات كثيرة مثل الإنجليزية والفرنسية⁽⁶⁾، وفي الفلسفة تأثرت أوروبا بمؤلفات ابن سينا والفارابي وابن رشد، فنقلت إلى اللاتينية. وفي مجال الجغرافيا استفاد الأوربيون من كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لشمس الدين المقدسي، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي، و"مروج الذهب" للمسعودي، أما أهم جغرافي المسلمين وأكثرهم أثراً فكان الشريف عبد الله الإدريسي، صاحب الدور الأكبر في تجديد هذا العلم والعناية به، حتى رأى البعض أنه كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم وليس بطليموس. وفي مجال الفنون والعمارة، أخذ رسامو أوروبا فكرة تزيين الأسقف بالصور الملونة، حتى إنهم نقلوا كتابات عربية زينوا بها الأسقف، مع أنها ذات طابع إسلامي، وقد دخلت هذه الكلمة إلى اللغات الأوربية بنطقها العربي⁽⁷⁾.

ثانياً: جامعة سالرنو والحضارة العربية الإسلامية

1- نشأة جامعة سالرنو

نشأت في العصور الوسطى في مدينة سالرنو⁽⁸⁾ مدرسة أسقفية لتعليم الطب، قبل قدوم العرب، ويبدو أنه كان من بين برامج التدريس فيها شيء من الطب المليء بالدجل والشعوذة، خاصة بعد نزوح من تبقى من الأطباء من مدرسة فيليبا الطبية إلى مدينة سالرنو المجاورة، حاملين معهم طبهم وتقاليدهم العلمية والفلسفية، لتتألف منهم نواة جامعة سالرنو القديمة، وأما إحياء سالرنو باعتبارها مركزاً من مراكز التعليم الصحيح فقد بدأ في القرن التاسع عندما فتح العرب صقلية وجنوب إيطاليا، وبدأ المعلمون العرب يفتنون إلى هناك.

ساهمت سياسة التسامح التي انتهجها ملك صقلية روجر الثاني⁽⁹⁾ بصقلية سنة 1090 م تجاه المسلمين، بدور كبير في نشاط جامعة "سالرنو"، وبذلك كونت الحضارة الإسلامية الأساس الذي قامت عليه الجامعة، حيث احتفظت اللغة العربية إلى جانب اللغتين اليونانية واللاتينية بمركز مرموق، فانتسح مجال استخدامها، سواء دخل حرم الجامعة أو خارجها، بل كانت اللغة العربية لغة العلم في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي حيث ترجمت المؤلفات اليونانية من العربية إلى اللاتينية⁽¹⁰⁾. ومما تجدر ملاحظته أن هذه المؤلفات قد سبقت ترجمتها من اليونانية مباشرة، ولكن يبدو أن الترجمة العربية كانت أكثر دقة ووضوحاً في نقل المادة العلمية من الأصل اليوناني، كما ترجمت كتب علمية كثيرة من تأليف العرب والمسلمين، وخصوصاً في ميدان الطب.

اشتهرت جامعة سالرنو بالطب، وبنيت هذه الشهرة على أساس سمعة قسطنطين الإفريقي Constantine Africanus. والواقع أن البذور الأولى للاهتمام بعلم الطب في غرب أوروبا في الشطر الأخير من العصور الوسطى يحيط بها الغموض الشديد، وهو ما يجعل من الصعب في كثير من الحالات الدخول في تفصيلاتها. ومع ذلك فإنه يمكن تتبع تلك الجذور في سالرنو منذ أواخر القرن التاسع وقبيل منتصف القرن العاشر، إذ جاء في الوثائق المعاصرة أنه حدث لقاء في بلاط لويس الرابع ملك فرنسا سنة 946 بين أسقف فرنسي له إمام بعلم الطب، وطبيب شهير وافد من سالرنو له خبرته في ممارسة صناعة الطب، ومن خلال التفصيلات المتعلقة بهذا اللقاء يبدو أن سالرنو كانت قد أدركت في ذلك الوقت شهرة، لا بوصفها مركزاً علمياً لدراسة الطب على أسس أكاديمية، وإنما بوصفها مكاناً يمارس فيه العلاج الطبي كمهنة أو حرفة تطبيقية⁽¹¹⁾.

بلغت المدرسة الطبية في سالرنو (باللاتينية: Schola Medica Salernitana) أوج مجدها بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين، وهو ما جعلها جديرة بلقب "مدينة أبقراط" (باللاتينية: Hippocratica Civitas)، لوجود نخبة من أئمة الأطباء والرياضيين الإغريق بها آنذاك. توافد الناس على سالرنو من أقطار الأرض، ساعين إما إلى التداوي وإما إلى تعلم صناعة الطب، وطبقت شهرة المدرسة السالرنوية الأفاق، كما يستدل عليه من شهادات مؤرخي تلك الحقبة، ومن المخطوطات التي خلفها أطباء المدرسة واحتفظت بها العديد من المكتبات في أوروبا⁽¹²⁾.

وُدرست في جامعة سالرنو إلى جانب الطب علوم الفلسفة واللاهوت والقانون. وإذا كان من الصعب أن نعثر على أدلة كافية تثبت وجود مدرسة لتعليم الطب في سالرنو في ذلك الدور المبكر، فإن كل ما نستطيع

أن نجزم به هو أن سالرنو اشتهرت في القرن العاشر بأنها مكان طبي للعلاج الطبي، كما اشتهرت بوجود مجموعة من الأطباء المتمرسين فيها. وإذا كان أوردريكوس فيتاليس Ordericus Vitalis في النصف الأول من القرن الثاني عشر قد وصف مدرسة سالرنو لتعليم الطب بأنها عريقة وقائمة منذ القدم، فإن تعبير "عريقة" هنا عائم، ومن الممكن أن يكون تعبيراً نسبياً قصد به الرجوع إلى الوراثة خمسين أو مئة سنة، والغالب أن شهرة مدرسة سالرنو في الطب ذاعت في غرب أوروبا منذ منتصف القرن الحادي عشر، أي قبل بزوغ نجم مدرسة بولونا في القانون، وذبوع شهرة مدرسة باريس في الفلسفة والعلوم الإنسانية بنصف قرن على الأقل. ومهما يكن من أمر فإن ازدهار دراسة الطب في جنوب إيطاليا، يرجع إلى تأثير انتقال الطب من العالم الإسلامي بصورة غير مباشرة إلى جامعة سالرنو، حيث مزجت مدرسة سالرنو الإرث الطبي الإغريقي واللاتيني بالتقاليد الطبية العربية، وقد أدى هذا المزج الثقافي إلى اتساع المعرفة الطبية، وصارت له ركيضة قوية أفاد منها الغربيون في إقامة صرح نهضة طبية عمت غرب أوروبا في عصر النهضة، يقول الدوميلي: "يرجع الفضل في تأسيس مدرسة سالرنو إلى أربعة أساتذة من مختلف الأوطان، الأستاذ هيلينوس وهو يهودي كان يقرأ على تلاميذه بالعبرية، والأستاذ يوننتس الذي كان يقرأ على تلاميذه باليونانية، والأستاذ عبيدلا (عبد الله) الذي كان يقرأ على تلاميذه بالعربية، والأستاذ سالرنوس الذي كان يقرأ على تلاميذه باللاتينية"⁽¹³⁾. هذا، ولم تقتصر الدراسة في جامعة سالرنو على الرجال فقط، بل سمحت للنساء أيضاً بتعلم وممارسة الطب، حتى صارت فيما بعد نموذجاً احتذى به غيرها من جامعات أوروبا.

2- العوامل التي ساعدت على ازدهار جامعة سالرنو.

أولاً: عندما دخل النورمانديون صقلية أدهشهم ما نقله المسلمون إليها من رقي وحضارة، فقد بذلوا جهداً كبيراً في ترقيتها من جميع جوانب الحياة، حتى بدا الفرق بينها وبين الدول التابعة لبيزنطة بعيداً جداً، إذ شاهدوا فيها مباني عظيمة، ووجدوا فنوناً راقية وأدباً عالياً، وعديداً من المساجد بها حلقات التعليم، تبدأ بتعليم الكتابة العربية والقرآن الكريم وتنتهي بدراسات عليا في علوم كثيرة دينية وغير دينية. وهكذا، تقدم ورفي كل شيء. كان الفرق واسعاً جداً بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد خروج البيزنطيين وبين ما وجدها عليه النورمانديون بعد خروج المسلمين⁽¹⁴⁾.

ثانياً: ظلت مظاهر الحياة العربية في صقلية باقية على كل شيء فيه، حتى على حياة الملوك والحكام النورمان، وحتى على كنائس النصراني ومنازلهم، وعلى نسائهم وأطفالهم، واستمر ذلك كله أكثر من قرن ونصف القرن، وحقق ذلك ما قيل من أن المسلمين انتصروا في ميدان العلم والحضارة حين هزموا في ميادين الحرب والأعمال العسكرية، وقد أطلق على هذا العهد اسم "العهد العربي النورماندي"⁽¹⁵⁾.

ثالثاً: شهدت أوروبا، التي تعتبر مدينة سالرنو جزءاً منها، حركة إصلاح ديني واسعة النطاق استهدفت إصلاح المؤسسات الدينية كالأديرة والكنائس، والارتفاع بالمستوى الفكري والثقافي لرجال الدين، والقضاء على المفاصل التي اعترت النظام الكنسي، أو التي عمت حياة رجال الدين العامة والخاصة.

رابعاً: تميزت هذه الفترة بحركة انفتاح واسعة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ أفاق كثيرون في غرب أوروبا من غمرة الجهل والظلام التي عمت مجتمعهم طوال عدة قرون، ليجدوا أنفسهم أمام بناء حضاري إسلامي ضخم، وجاء الإقبال على حضارة المسلمين والرغبة في الاستفادة من علومهم مصحوباً في جامعة سالرنو بحركة تمرد- وخاصة من جانب الشباب وطلاب العلم- ضد الكنيسة وسطوة رجالها، بعد أن ضاق كثيرون بالإرهاب الفكري والاجتماعي الذي فرضته الكنيسة ورجالها على الناس أمداً طويلاً. وجدير بالذكر أن بعض المستنيرين من رجال الكنيسة رأوا الاستفادة من علوم المسلمين ومعارفهم، فشجعوا حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية. وفي القرن الثاني عشر، أقيمت مكاتب للترجمة في أسقفيات، أسهمت إسهاماً كبيراً في ترجمة كثير من المؤلفات العربية في شتى ضروب المعرفة⁽¹⁶⁾.

خامساً: العلاقات الثقافية بين سالرنو والأندلس والمغرب، سواء في عهد الإسلامي أو النورماندي، أدت إلى هجرة بعض العلماء والفقهاء إلى جامعة سالرنو، كما رحل عدد كبير من الطلاب من سالرنو للدراسة على أيدي علمائها، ولما عادوا إلى الجامعة قاموا بنشر ما تعلموه، وخاصة في الدراسات النحوية والقرآنية والطب.

سادساً: أدى امتداد نفوذ النورمان إلى شمال أفريقيا إلى تمكين جامعة سالرنو من زيادة الاستفادة من ثمار الحضارة الإسلامية التي عشقوها، ونظراً لأن أفريقيا كانت مركزاً هاماً من المراكز التي ازدهر فيها الطب الإسلامي، فإن إنجازات المسلمين في هذا العلم وجدت الطريق مفتوحاً أمامها لتنتقل إلى جامعة سالرنو⁽¹⁷⁾.

3- جامعة سالرنو والتراث العربي الإسلامي (والتفاعل الحضاري):

ا- جامعة سالرنو والمؤثرات العربية الإسلامية

يعتبر النورمانديون أشد أنصار الثقافة العربية، فقد ورثوا الحضارة العربية الإسلامية التي وجدوها أمامهم عند دخولهم لجزيرة صقلية، فلم يسعهم إلا الخضوع لها والاقتراب منها، وبرز من بين الحكام من أنصار الثقافة العربية "روجر الأول" فاتح الجزيرة، وابنه "روجر الثاني"، وسماههما ابن خلدون في تاريخه باسم "روجار"، والملك فريديك الثاني ووليم الثاني، الذين كان لهم دور كبير في دعم هذه الحضارة في جميع المجالات، وفي جميع مدن الجزيرة، وتعتبر مدينة سالرنو من طليعة المدن التي تسرب من خلالها الفكران العربي والإسلامي إلى أوروبا.

ويجمع الباحثون على أن تقدم التشريح في الغرب الأوربي وفي جامعاته الناشئة جاء نتيجة لمؤثرات عربية إسلامية. ذلك أن ترجمة مؤلفات ابن سينا والرازي وأبي القاسم إلى اللاتينية، أحدثت ثورة شاملة في علم التشريح في غرب أوروبا. ونخص بالذكر كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي، المتوفى سنة 1107م، إذ ظل هذا الكتاب- بعد ترجمته إلى اللاتينية- المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه الأوربيون، وبخاصة داخل الجامعات وكليات الطب، في الجراحة وتجبير العظام طوال عدة قرون تالية. وقد ترك أبو القاسم أيضاً مرجعاً صغيراً في وصف الآلات المستخدمة في العمليات الجراحية وطرق استعمالها، مع توضيح كل ذلك بالرسوم. ويعتبر هذا المرجع الأول من نوعه في موضوعه، وهو ما أكسبه أهمية كبرى في تاريخ الطب، بحيث ظل مرجعاً أساسياً في كليات الطب بغرب أوروبا حتى القرن التاسع عشر (18).

ولم يكن فضل الطب الإسلامي على جامعة سالرنو قاصراً على الميادين السابقة فحسب، وإنما ظهر أيضاً في الأدوية المضادة للسموم، وقد أشاد بعض الباحثين بأحد أطباء سالرنو، واسمه نيقولا *Nicholas of Salerno*، بوصفه أول من أسس في القرن الثاني عشر قسماً خاصاً بالأدوية المضادة للسموم *Antidotaria* في علم الصيدلة، ولكن العالم ماكني، الذي اشتهر بدراساته وبحوثه في تاريخ الطب يقول ما نصه: "إن الفضل في هذا الأمر لا يرجع إلى نيقولا بقدر ما يرجع إلى علماء المسلمين، لأن نيقولا استمد معلوماته عن مضادات السموم من التراجم اللاتينية للمؤلفات العربية، وخاصة تلك المؤلفات التي ترجمها قسطنطين الأفرريقي". ومما تجدر ملاحظته أنه كان لنفوذ العرب دور كبير في فصل مهنة الصيدلة عن الطب في جامعة سالرنو خلال هذه الفترة، وبذلك أصبحت مهنة مستقلة قائمة بذاتها. وفي عام 1240م قام الملك فريديك الثاني بسن قوانين يفصل بموجبها المهنتين إحداهما عن الأخرى بشكل رسمي. وهكذا، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادي كان على الصيدالدة في بلدان أوروبا أن يقسموا اليمين على صرف الوصفات الطبية بدقة وأمانة، وما زال ذلك القسم معمولاً به في بعض تلك المدن الأوربية حتى الآن. ومع قدوم القرن الرابع عشر بدأت بوادر انفصال المهنتين بالظهور في إنجلترا (19).

ولكن يبدو أن التوسع في تعلم وتعليم اللغة العربية في بعض الجامعات الأوربية الناشئة لم يخدم الكنيسة ويحقق أهدافها البعيدة، بقدر ما خدم الحياة العلمية، ومكن طلاب العلم من الاستفادة مما في المراجع والمصادر العربية من ثروة علمية ضخمة. فقد ربط أساتذة الجامعات الأوربية بين العلم ومعرفة العربية، حتى قال روجر بيكون (1215-1292): "إن العلم مأخوذ من الكتب العربية، ومن أراد أن يكون عالماً فعليه أن يبدأ بتعلم العربية"، وقد ورد في بعض الوثائق المعاصرة أن طلاب روجر بيكون كانوا يتغامزون أحياناً إذا أخطأ أمامهم في ترجمة بعض النصوص العربية إلى اللاتينية، لأن هؤلاء الطلاب كانوا يطالعون النص العربي ويقارنون بينه وبين ما يقوله أستاذهم.

وإذا كانت مدرسة الطب في سالرنو بجنوب إيطاليا قد ظهرت وازدهرت على أساس قاعدة عريضة من الطب الإسلامي، فإنه يبدو أن هذه المدرسة استطاعت أن تحقق لنفسها مكانة مرموقة في عالم الطب عند ختام القرن الحادي عشر. وفي تلك المرحلة زارها- سنة 1099- روبرت النورماندي للاستشفاء، بعد أن أصيب بجراح في الحروب الصليبية بالشام. واشتهرت مدرسة سالرنو عندئذ بما حققت من تقدم في الجراحة، وأجريت فيها عمليات جراحية ناجحة. ويرجع الفضل في هذا التقدم إلى ما أفاده أطباء سالرنو من كتب الرازي وابن سينا وأبي القاسم في التشريح (21).

ب- حركة الترجمة

من طليعة المدن التي تسرب من خلالها الفكران العربي والإسلامي إلى أوروبا مدينة سالرنو الإيطالية، فقد عرفت أوروبا المستشفيات لأول مرة في تلك المدينة منذ القرن التاسع الميلادي، وكان للعرب فضل كبير، حيث مزجت الجامعة بالدماء الجديدة الشابة، فانتشر إشعاعها عن طريق تلامذتها الذين توزعوا هنا وهناك في المدن الأوروبية، وكان من بينها مدينة مونبلييه⁽²²⁾ التي ورثت مدرسة سالرنو، فاضمحت بعد عام 1400م، وبقيت كذلك إلى أن وجه لها نابليون ضربة قاضية عام 1818م وأقفلها. ولا شك في أن مدرسة سالرنو كانت الجسر الذي وصل الشرق بالغرب، وساعد في بعث طب جديد مستقل عن الأديرة والقساوسة واللاهوت.

تميزت الكتب التي نقلتها أوروبا إلى لغاتها بأنها كانت تمتاز بالوضوح والترتيب والتسلسل، لذلك فقد ظل بعضها كتباً مدرسية بين أيدي الطلاب قروناً عديدة، كالقسم الخاص بالجراحة من كتاب التصريف لأبي القاسم الزهراوي الذي طبع وبقي كتاباً مدرسياً للجراحة قروناً عديدة في مدرسة سالرنو، كما ظل كتاب القانون لابن سينا سبعة قرون بين أيدي الطلاب، ولم يقتصر نقل الغرب لعلوم العرب على ترجمة الكتب، بل كانون مضطرين إلى أخذ المعارف وإلى أخذ أنظمة المؤسسات المختلفة والجامعات⁽²³⁾.

إن انتشار العلم وشغف الناس بالحصول على المعرفة، رافقته رغبة جامحة في اقتناء الكتب وجمعها وتداولها، إضافة إلى بناء المكتبات التي كانت تعد بالعشرات في المدن الكبرى، فضلاً عن المكتبات الخاصة التي أصبحت من سمات الثراء وسعة الحياة، فقد ذكر أن مكتبة ابن عباد الخاصة كانت تحوي ما يزيد على منتي ألف مجلد.

إن وجود هذه الأعداد الضخمة من الكتب بين أيدي الناس ما كان ليحصل لولا وجود صناعة الورق، وهي أفضل هدية قدمها العرب لأوروبا. فمن مراكش حيث دخلت صناعة الورق لأول مرة انتقلت إلى إسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر، ومنها إلى إيطاليا على يد مسلمي صقلية عام 1270 ومنها انتشرت في أوروبا.

ارتبط اسم جامعة سالرنو بعد الفتح النورماندي 1016 بأسماء بعض المترجمين العرب المشهورين 1087، ومن أشهر الذين كان لهم تأثير كبير في انتقال العلوم من العرب إلى الغرب:

1- قسطنطين الإفريقي، وهو من أصل عربي، ولد في مدينة قرطاجة بتونس عام 411هـ/1020م، ودرس الطب والفلسفة، وتعلق بالحكماء والفلاسفة المسلمين الذين ذاع صيتهم في بلاد الأندلس، وقام برحلات إلى الشرق من أجل الدراسة، فأقن اللغة العربية، وظل في بغداد مدة طويلة ثم توجه إلى الهند والحبشة، ورحل منها إلى خراسان ثم الشام ومصر. ومما تجدر ملاحظته أن قسطنطين كان معاصراً لعدد كبير من العلماء، منهم ابن سينا (ت 428هـ/1037م) والبيروني (ت 440هـ/1048م)، ولكن قسطنطين لم يذكر في مؤلفاته هؤلاء العلماء، وليس لدينا ما يثبت أنه اتصل بهم من أجل الاستفادة العلمية⁽²⁴⁾.

عمل قسطنطين في مدرسة سالرنو الطبية، فأثر فيها تأثيراً بالغاً بترجمته عدداً من الكتب الطبية اللاتينية، وإدخاله التعليم الطبي العربي إليها، كما أنه كان يكتب أيضاً في القانون الصحي الذي كان يحرره عدد من أساتذة مدرسة سالرنو. ويذهب البعض إلى أنه كان قد أسلم، ولكنه كتم دينه خوفاً من الاضطهاد الذي كان سائداً ضد الإسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية. وظهرت أول طبعة من كتبه في بازل سنة 1537م في سبعة أجزاء.

درس قسطنطين اللغة اللاتينية في مدينة سالرنو قبل أن يدخل سلك الرهينة في دير مونت كاسينو، في كامبانيا، وقد عكف في هذا الدير على ترجمة عدد كبير من المؤلفات العربية وكذلك اليونانية إلى اللاتينية، ومن بين هذه المؤلفات الطبية التي ترجمها قسطنطين إلى جامعة سالرنو كتاب كامل الصناعة الطبية أو الكتاب الملكي لمؤلفه علي بن عباس، وعرف عنوان الكتاب باللاتينية باسم (Liber rogius) ومؤلفه باسم (Haly filiys)، وقد ظهر بعنوان كتاب الكليات (Liber pantegni)، ومعها مؤلفات ابن الجزار (ت 395هـ/1004م) الذي ترجمه تحت اسم (Vioticum)، وقد انتشر هذا الكتاب في جميع أنحاء أوروبا، وأصبحت طريقة ابن الجزار في الطب هي الطريقة المتبعة في أوروبا.

لم يكتف قسطنطين الإفريقي بترجمة تلك الكتب، بل أخذ يتبحر في علم الطب، وألف 22 كتاباً في مختلف فروع الطب وطرق الوقاية من الأمراض والعلاج منها، ولقد طبعت كتبه كلها ما بين 1536-1539م، وزاد عدد مترجمات قسطنطين الإفريقي على ثلاثين كتاباً نقلها جميعاً إلى اللغة اللاتينية، ونذكر منها:

- 1- كتاب الماينخوليا لإسحاق بن عمران.
- 2- كتب النبض والبول والحميات والأغذية لإسحاق بن سليمان.
- 3- كتاب زاد المسافر لابن الجزار القيرواني.
- 4- كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي.

- 5- كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي.
6- فياتيكيوم في الطب العام 7 كتب، ويتناول جميع أعضاء الإنسان(25).

وقد تتلمذ على يدي قسطنطين عدد كبير من الطلبة كان من بينهم يونس الفلكي، وهو من أصل عربي ساعد أستاذه قسطنطين في ترجمة الكتاب الملكي حتى توفي سنة 480هـ/1087م، كما تبعه أيضاً تلميذه يوحنا أفليطس (توفي 1100) فنقل بعض كتب الطب اللاتينية. ومن أشهر مترجمي سالرنو فرج بن سالم (ت 1285) الذي نقل كتاب الحاوي للرازي، ثم انتقلت إلى مونبلييه، واستمرت مزدهرة إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي.

2- فرج بن سالم المعروف عند الغرب (فراجوت أو فراريوس) الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي بأمر الملك شارل الأول وقد انتهى منه عام 1279م ونُشر عام 1486م. وترجم أيضاً كتاب جالينوس في الطب التجريبي ومؤلفات حنين بن إسحاق وتقويم الأبدان لابن جزلة إلى اللاتينية(26).

3- ومن بين المترجمين في سالرنو كان أدلا رد البائي، ذلك أنه بعد أن زار المراكز الثقافية في صقلية استقر بعض الوقت في سالرنو وترجم النسخة العربية لإقليدس وألف مختصراً في العلوم العربية.

4- ومن بين المترجمين الإيطاليين يوحنا الكابوي الذي ترجم من العبرية لللاتينية كتاب التيسير لابن زهر، ومقالة في تدبير الصحة لابن ميمون(27).

5- استيفان الأنطاكي: وقد درس في جامعة سالرنو، ومنها توجه إلى أنطاكية سنة 521هـ/1127م حيث قام بترجمة جديدة لكتاب الملكي، لعلي بن عباس، ويبدو أن ترجمته نالت شهرة عالية فانت ترجمت قسطنطين الأفريقي، وظهرت تحت عنوان الكتاب الملكي (Liber regius)، وقد أضاف إليها كشافاً يونانياً، عربياً، لاتينياً، للمصطلحات الفنية التي استعملها ديسقوريدس. والراجح أيضاً أن استيفان هذا هو مؤلف كتاب Demodo Medendi(28).

كان الإمبراطور فردريك الثاني(29) مهتماً بالطب وعلم الحيوان، فوصل إلى جامعة سالرنو عدد من الأطباء المسلمين منهم الطبيب تقي الدين، وثيودور الأنطاكي الذي ألف كتاباً في علم الحيوان، كما أنشأ في جامعة سالرنو أول قسم للتشريح في أوروبا، في حين ترجم ميخائيل سكوت كتاب ابن رشد، فضلاً عن غيرهم من المترجمين(30).

واشتهر من بين طلاب سالرنو مايكل سكوت (Michael Scot) الذي ألف كتبه في صقلية (1175-1236) وقد تضمنت إحدى وصفاته التخدير بالاستنشاق. وكان لتلاميذ مدرسة سالرنو أثر بالغ في نقل العلم إلى سائر جامعات أوروبا، حيث ذهب قسم منهم إلى مدرسة مونبلييه وآخرون إلى نابلي، وذهب بيرجيل دي كوبري بعد ذهابه إلى نابلي إلى جامعة باريس. واستمرت هذه المدرسة محتفظة بهذه المكانة العلمية حتى سقوط مدينة سالرنو في يد هنري السادس، عندها تدهورت الحركة العلمية فيها واضمحلت مدرسة سالرنو في سنة 1400م، وأغلقتها نابليون نهائياً سنة 1811م، ثم سارت أغلب الجامعات الأوروبية مثل باليرمو، وبدوا، ومونبلييه، وباريس، وأكسفورد بنفس الطريق، معتمدة العلوم العربية أساساً في برامجها التدريسية، حتى إن الطب العربي ساد في أوروبا طيلة القرون الوسطى(31).

كانت اللغة العربية من بين اللغات التدريس في جامعة سالرنو، فقد اعتمد أساتذة الجامعة في إعداد مناهجهم الدراسية على معلومات استقوها من الكتب العربية، ومن أهم مؤلفات الجامعة الموجز السالرنوي والنظام الصحي السالرنوي، وقد ألف سنة 494هـ/1100م، وهو مقيد في 352 بيتاً في الأصل، وأشهر شرح له هو شرح أرنولد فيلانوف (633-712هـ/1235-1312م)، وهو طبيب وأديب من كتالونيا أتقن اللغة العربية وترجم وألف باللاتينية(32).

وهكذا نلاحظ أن مدينة سالرنو كانت ولا تزال تمثل جسراً حضارياً مهماً للتفاعل الحضاري بين العرب المسلمين من جهة، والغرب من جهة ثانية، وأن العلاقات الحضارية لم تكن أقل تأثيراً من العلاقات العسكرية، بل كانت أكثر فاعلية وتأثيراً، ولهذا، فإن جامعة سالرنو لا تزال إلى الآن تتميز بالروح العربية والإسلامية، كما نجد أن هناك حرصاً من الصقليين على إحياء العلاقات الحضارية بينهم وبين العرب. ومهما يكن من أمر جامعة سالرنو فإنها أسهمت بحظ وافر في نقل العلوم الشرقية إلى الغرب، وكانت مركز ترجمة نشيطة، وبحكم موقعها وتاريخها كانت ملتقى أجناس ولغات، وسادت فيها اللغات الحية إذ ذاك الواسعة الانتشار، اليونانية واللاتينية والعربية.

يستخلص مما تقدم أن أثر الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية كان كبيراً، ويظهر ذلك بشكل واضح في جامعة سالرنو التي تعتبر أنموذجاً لهذا التفاعل الحضاري بين الشرق والغرب.

1. كان العرب والمسلمون يمثلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة، كانوا رواداً في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المثقفون والعلماء في أوروبا من الثقافة العربية الإسلامية، أكثر من مجرد المعلومات؛ إنهم اكتسبوا العقلية العلمية.
2. يعتبر النورمان من أشد أنصار الثقافة العربية، فقد ورثوا الحضارة ولم يسعهم إلا الخضوع لها والافتقار منها، وبرز من بين الحكام أنصار الثقافة العربية.
3. احتفظت جامعة سالرنو للغة العربية بمركز مرموق، فانتسح مجال استخدامها، سواء دخل حرم الجامعة أو خارجها.
4. اشتهرت جامعة سالرنو للطب بأسماء بعض المترجمين العرب المشهورين، مثل قسطنطين الإفريقي.
5. مزجت مدرسة سالرنو الإرث الطبي الإغريقي واللاتيني بالتقاليد الطبية العربية، وقد أدى هذا المزج الثقافي إلى اتساع المعرفة الطبية.
6. إن المؤثرات العربية الإسلامية لها دور كبير في تقدم علم التشريح وعلم الأدوية والمضادات الحيوية في الغرب الأوربي وفي جامعته سالرنو.
7. تمثل مدينة سالرنو وجامعتها معبراً حضارياً مهماً للتفاعل الحضاري بين الشرق والغرب، وبين العرب المسلمين من جهة، والغرب من جهة ثانية.

- (1) عبد الرحمن بدوي: "دور العرب في تكوين الفكر الأوربي"، (القاهرة، 1967م)، ص 160-161.
- (2) حامد زيان: "تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها على أوروبا"، (القاهرة، دت)، ص 105.
- (3) عز الدين أبو الحسن بن الأثير: "الكامل في التاريخ"، ج 8، (بيروت، دار صادر، 1966م)، ص 44-45؛ جمال الدين سرور: "تاريخ الدولة الفاطمية"، (القاهرة، دار الفكر العربي، دت)، ص 176-175.
- (4) تقي الدين أحمد بن علي المقرئ: "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، ج 1، (بيروت، دار صادر العامة للكتاب، 1959م)، ص 219؛ ميخائيل أماري: "المكتبة العربية الصقلية"، ج 1، (بغداد، مكتبة المثني، 1957م)، ص 427، 429.
- (5) سعيد عاشور: "أوروبا في العصور الوسطى"، ص 217؛ علي حسني الخربوطلي: "الحضارة العربية الإسلامية"، (القاهرة، مكتبة ومطبعة الخانجي، 1994م)، ص 313.
- (6) عبد المنعم الجميعي: "دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية"، (القاهرة، وزارة الثقافة المصرية)، ص 43.
- (7) جمال الدين يوسف بن تغري بردي أبو المحاسن: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، ج 6، (القاهرة، وزارة الثقافة، دت)، ص 283؛ فيليب حتي: "تاريخ العرب المطول"، ج 2، (القاهرة، دار الفكر، 1965م)، ص 822.
- (8) تقع مدينة سالرنو الإيطالية في رأس خليج سالرنو في البحر المتوسط على بعد 30 ميلاً من مدينة نابولي من جنوب شرقها. وتقع على الخليج نفسه مدينة إمالفي. انظر: فيصل دبدوب: "مدرسة سالرنو الطبية"، (دمشق، مطبعة الترقى، 1966م)، ص 4.
- (9) روجر الثاني: من أشهر ملوك النورمان الذين حكموا صقلية، حيث تم تتويجه ملكاً في بالمو سنة 1130م؛ عزيز أحمد: "تاريخ صقلية الإسلامية"، ترجمة أمين توفيق الطي، (طرابلس، 1979م)، ص 64.
- (10) محمد كامل عياد: "أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوربيين"، (دمشق، مجمع اللغة العربية، دت)، ص 24.
- (11) سعيد عبد الفتاح عاشور: "الطب الإسلامي في الجامعات الأوربية في فجر عصر النهضة"، نشرت على صفحة أوسترو عرب نيوز الإخبارية التي تصدر في فيينا- النمسا، بتاريخ 2010/12/7. وانظر أيضاً زيغريد هونكه: في شمس الله تشرق على الغرب.
- (12) زيغريد هونكه: "شمس العرب تسطع على العالم"، (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، 1964)، ص 385.

- (13) الدوميلي: "العلم عند العرب وأثره في تطور العلم"، ترجمة عبد الحليم الذحار، (القاهرة، 1962م)، ص429.
- (14) تقي الدين الدوري: "دراسة في تاريخ العرب وحضارتهم في صقلية"، (الخميس، جامعة نا صر، 1997م)، ص101 - 102.
- (15) حسان حلاق: "عندما كانت صقلية معبراً للتفاعل الحضاري بين العرب والغرب"، مجلة العربي، العدد 531، فبراير، سنة 2003م، ص3.
- (16) حسان حلاق، المرجع السابق.
- (17) عزيز: "تاريخ صقلية"، ص87.
- (18) محمود الجليلي: "تأثير الطب العربي في الطب الأوربي"، مجلة المجمع العراقي، م32، ج3، 4، ص186-210.
- (19) رياض رمضان العلمي: "الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم"، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، 1990م)، ص61.
- (20) روجر بيكو: ولد في إيلتشيستير في سومرست في إنجلترا. يعرف بلقب المعلم الرائع. كانت لديه اهتمامات بعلم الرياضيات وعلوم الطبيعة ودراسة اللغة العربية، وقام بترجمة عدد كبير من النصوص من اليونانية والعربية، هو أحد دعاة المنهج العلمي، وقد استند في ذلك إلى ابن الهيثم وأرسطو. العلمي: "الدواء من فجر التاريخ"، ص34.
- Williams, S. J., "Roger Bacon and his Edition of the Pseudo-Aristotelian Thorndike, Lynn,, "Roger Bacon and Secretum secretorum," Speculum, :23 ,pp, 1914,Philosophical Review ",Experimental Method in the Middle Ages .298□271
- (21) الجليلي: "تأثير الطب العربي"، ص194، 195.
- (22) مونبلييه (بالفرنسية: Montpellier) (بالأوقسيطانية: Montpelhièr) هي مدينة في جنوب فرنسا، وعاصمة محافظة هيرولت وعاصمة جهة لونغدوك وروسيليون. تقع ما بين نيم وبيزيبه، على شاطئ البحر المتوسط. وهي واقعة على المحور الرابط بين إسبانيا في الغرب وإيطاليا في الشرق. انظر الأطلس العربي.
- (23) صالح محمد سيد: "قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى"، (بيروت، شركة الكتاب الإلكتروني العربي، 2008م)، ص77؛ عبد العزيز سليمان نوار، ومحمود محمد جمال الدين: "التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى"، (بيروت، دار الفكر العربي، 1999م)، ص95.
- (24) تقي الدين: "دراسة في تاريخ العرب وحضارتهم في صقلية"، ص139.
- (25) جورج حداد: "المدخل إلى تاريخ الحضارة"، (دمشق، جامعة سوريا، 1985م)، ص545؛ توفيق الطويل: "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية"، (القاهرة، دت)، ص157.
- (26) ماكس مايرهوف: "كتاب تراث الإسلام"، ترجمة جرجيس فتح الله، (بيروت، دار الطليعة، 1972م)، ص465.
- (27) بوجين مايرز: "الفكر العربي والعالم الغربي"، (بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1986م)، ص126.

(28) عزيز أحمد: "تاريخ صقلية الإسلامية"، ص112.

(29) الإمبراطور فردريك الثاني هو ابن الإمبراطور هنري السادس من زوجته الأميرة كونستانسا بنت روجر الثاني ملك صقلية النورمان، حيث ورث الإمبراطور فردريك عرش صقلية 1198م، وتم تنويجه إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة 1215م. انظر: محمود سعيد عمران: "معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى"، (بيروت، دار النهضة العربية، دت)، ص299-303.

(30) لويس يونغ: "العرب وأوروبا"، ترجمة ميشيل أزرق، (بيروت، دار الطليعة، 1979م)، ص121.

(31) المرجع السابق، ص121.

(32) تقي الدين: "دراسة في تاريخ العرب وحضارتهم في صقلية"، ص140.